المثقّف العربي والمجتمع الحديث

پ . ج . ڤاتيكيوتيس

مضى على ثورة الضباط الاحرار في مصر (ج. ع. م.) ما يزيد على العشر سنوات ، ومع هذا فاننا لم نر بعد معالجة منظمة وعلمية لمعالم هـذه الثورة تصدّى لهم مثقفو البلد . وكل ما لدينا عدد من المعالجات البسيطة المستعجلة لهذه المعالم ، نجدها في الصحف وبأقلام مؤلفي الكتيبات الشعبية . وما يسبب الدهشة في هذا الصدد ان المبادىء الاولية لمحتوى هذه الثورة لم توضح الا في ايار (مايو) ١٩٦٢ ، وان هذا الوضع الاجمالي أتى من الرئيس جمال عبد الناصر ، عندما قدم « ميثاقه الوطني » للمناقشة والبحث في المؤتمر التحضيري للقوى الشعبية ، وليس من فئة رجال الفكر والثقافة .

ليس قصدي هنا ان اضع مبادىء هذه الثورة ، لأني لست عربياً ، ولأني كتلميذ اجنبي لتاريخ البلاد العربية وثوراتها والمشاكل المتعلقة بهـذه الحركات ، لا يليق بي ان اعتنق فرضاً وطنياً كهذا . ولكن ، هل يسمح لي القارىء العربي بأن اشاركه في التفكير والتأمل في مسائل قليلة تتعلق مباشرة بقضية ايضاح معالم التطورات ــ ثورية كانت ام لم تكن ــ التي بذرتها ثورة تموز (يوليو) ١٩٥٢ في المجتمع المصري ، وأكاد اقول في المجتمع العربي العام ايضاً ؟

هناك اولا علاقة جدية بين الثقافة والمثقفين من جهة وبين نوع التطور الاجتماعي والسياسي الذي تفكر فيه قيادة الثورة وترجو تحقيقه من جهة اخرى . ثانياً ، اني لا اتقيد

بنظرية الكثيرين من زملائي في امريكا التي تعتبر تقدم المجتمع العربي ، والمصري بالأخص، في الثقافة والسياسة محتوما لا مفر منه اذا تتبع هذا المجتمع واعتنق خطوطا اكثرهـا من نمط المشاريع الاقتصادية ، لاني اعتقد ان المجتمـع الانساني كائن كلي حي لا يتجزأ، ولا يقبل تدعيم جزء او فئة منه دون الاخرى او تنمية وتوسيع حقل من حقول العمل فيـه دون الآخر .

صرحت الاغلبية الساحقة من الدول المنطلقة في آسيا وافريقيا وعلى رأسها الجمهورية العربية المتحدة بأن لها هدفين رئيسيين ستكافح للوصول اليهما ، وهما : اولا بناء مجتمـع صناعي حديث ، وثانياً اقامة مؤسسات وأسس ومجتمعات ديمقراطية حرة . فلكي تصل الى الهدف الاول وبسرعة يجب ان تكون الخطوات اليه ثورية والاسلوب اشتراكيا . اما الهدف الثاني فشاسع المدى تنطوي عليه عدة صعوبات في التحليل والتفسير ، وليس بامكاننا ان ندرسه دراسة وافية في مجال مقالنا القصير هذا ، ويكفي القول فيه ان المجتمع السياسي الديمقراطي يتطلب اقامة واطلاق عمليات سياسية ترضى بها الاغلبية وليس فقط تعريف معاملات وعلاقات شعبية لتركيز الحكم القائم والزعامة القائمة وتأييدهما . وزيادة على ذلك فان اسلوب المعاملات والعلاقات يتطلب صفة الاستمرار والاستقرار ، فمن النادر ان تجمع دولة بين اقامة حكومة مركزية قوية يرئسها زعيم له صفات تستهوي الجمهور من ناحية ، وصفات الديمقراطية الاساسية مثل الحرية الفردية والجماعية من ناحية اخرى .

كلا هذين الهدفين يخلقان مشاكل معقدة للوصول الى اتزان ثقافي وايديولوجي (او الى « تعادلية » حسب تسمية توفيق الحكيم) في المجتمعات الآسيوية - الافريقية ، ومهمات اساسية للمثقفين فيها ؛ وأهم هذه المهمات تتعلق بدخول المجتمع في العصر الحديث ، عصر الآلة والصناعة ، عصر خلق وتفكير جديد يزعزع النزعات والتقاليد الموروثة من الماضي (وخصوصا ماضٍ له تاريخ مجيد) ويكاد يقضي على تراث السلف والاولين .

ومصر التي استمرت حوالي ١٥٠ سنة في تطور مطرد للحـاق بقافلة العصر الحديث تطمح في ان تقود العالم العربي في دخوله هذا العصر ، وفي طموحها هذا تعترف بضعف واضمحلال قيم السلف وعدم مقدرتها لقيادة عملية الانطلاق والتطور والانتقال من عصر الى عصر . وتعتقد ايضاً ان نوع التطور الاجتماعي في هذه المرحلة الحاسمة ثوري لا تدريجي، وان عدو المصريين والقومية العربية الشاملة هو الرجعية (القول « لا عروبة بدون اشتراكية » مثلا) ، وان اهم اطار لهذا التطور ليس التغيير السياسي والعمليات السياسيـة مفردة ومتفرقة ، بل التنمية الاقتصادية ، وخصوصا الناحية الصناعية منها .

ان تحويل مجتمع قديم ذي تقاليد موروثة خلال ازمان وعصور متتالية طويلة الى مجتمع متطور حديث بواسطة السياسة الثورية وعن طريق التصنيع والاشتراكية يواجه مشاكل عديدة : في الجمهورية العربية المتحدة كما في البلدان العربية الاخرى تراث سياسي ثقيل يجب ان يزال ، ومن اهم عناصر هذا التراث مسألة علاقة الانسان بالانسان ، وعلاقة الفرد بالجماعة ، وعلاقته بوجه خاص بالحكم والحاكم . ويثير هذا التراث ايضاً موضوع فكرة العدالة وأساس التمثيل السياسي .

ان انطلاق مفهوم حديث لهذه العناصر الاساسية ونضوج فلسفة اجتماعية سياسية حديثة في بيئة ومحيط اسلامي تقليدي ، يستوجب تحليل وتطور قيم ثابتة جديدة في المجتمع تتناسب مع مفهوم المجهود الوطني المعاصر في بناء مجتمع صناعي اشتراكي جديد ، كما يستوجب قبول هذه القيم لدى الاغلبية في المجتمع السياسي ، اي الأمة . اما القيم نفسها فتكون فعالة عندما تكون قادرة على توحيد الصفوف ورسم المبادىء الرئيسية للحياة الجديدة في العصر الحديث .

والحقيقة ان المجتمع الصناعي الحديث نشأ وتقدم في اوربا الغربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والقرن العشرين . ولم يكن تطوره مبنياً على اختراع الآلة فحسب بل على خلق افكار وقيم وفلسفات متوالية تحدّت تقاليد المجتمع الاوربي الذي سبقها ، كما رسمت واثبتت علاقات انسانية واخلاقاً اجتماعية وسياسية حديثة ، مكّنت المركّب الصناعي والآلي ان يخدم هذا المجتمع لمنفعته . واهم ما حصل هو ايجاد نمط وأساس تفكير جديد مثل الايمان بالتطور والابداع . فللعصر الصناعي اذاً اخلاق وتهذيب وقيم خاصة به. والسؤال الجوهري بالنسبة لثقافة ومثقفي بلد منطلق ثوري كالجمهورية العربية المتحدة هو : هل يعني تحرك هذا البلد وميله نحو العصر الصناعي والمجتمع الحديث اعتناقَه لهذه القيم ايضاً ، ام يعني استعارة الآلات والاختراعات التي ولّدها كوسيلة لخلقه فقط ؟ اذا اراد مجتمع آسيوي افريقي ، مثل المجتمع المصري حضارة وتراثا ، الاستعارةَ المجردة للآلات والتكنولوجيا ولم يأخذ او يقبل القيم التي سببت هذه الوسائل وتولدت منها لأنها اجنبية خارجة عن محيطه مضادة لطبيعته ، فكيف يربّي هذا المجتمع قيماً جديدة محلية محضة نابتة من واقعه ؟ هل يخلق الحكام والسلطة هذه القيم بالمراسيم والعمليات السياسية ، ام تأتي تدريجياً بانطلاق مفكري هذا المجتمع وبالاخص المثقفين منهم ؟ هذا هو محور ازمة الثقافة والمثقفين في الجمهورية العربية المتحدة . ولا اعني بهذا النوع الازمة التي عرضها محمد حسنين

هيكل في مؤلفه المختصر « ازمة المثقين في مصر » ، لانه عالج فيه بصورة جزئية مسألة الحكم ولماذا تقدم الجيش على السيطرة دون المثقفين . كما اني لا اعني بهذا نوع الازمة التي عرضتها صحف القاهرة وادباؤها في السنوات الاخيرة ، كمسؤولية الادب نحو العروبة والاشتراكية الخ . ان الازمة في نظري اساسية وعميقة وجوهرية ، واعني بها علاقة الثقافة بمعنى الثورة واهدافها من قيم واخلاق للمجتمع الصناعي الحديث .

فهذا الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة السابق ينذر مواطنيه ان « بناء الانسان الجديد في المجتمع الاشتراكي يقع العبء الاكبر فيه على عاتق الثقافة والفن » . وهذا الشاعر الشاب صلاح عبد الصبور يرى ان المثقفين المعاصرين هم طليعة متصلة اتصالا مباشراً بأهل الريف والعمال ومنحدرة منهم ، وان واجبهم الاساسي هو الموازنة والملاءمة بين استعمال التراث العربي الاسلامي ، تراث ابن خلدون والجاحظ وابي العلاء ، وتراث التمدن الصناعي المعاصر وضروریاته . ومع ان صلة القربى التي تربط بين المثقفين المعاصرين واهل الريف والعمال ، كما قال عبد الصبور ، هي موضع جدل بين البعض ولا تقبل بدون جدل عند البعض الآخر ، فالتوازن بين هذين التراثين والنظريتين للعالم والكون والانسان فيه من اصعب عمليات الانطلاق . وهذا الناقد الادبي الدكتور لويس عوض يقول عن مجتمعه وبيئته : « نحن في حاجة الى تفكير ديني من نوع جديد ... تفكير ديني يجعل الانسان يتمسك بالجوهر الديني لا بحرفه ، وبلبه لا بقشرته ... يربط بينه وبين طبيعة الحياة وتطور العلوم والفنون والآداب في المجتمع الحديث » ، وان ارقى اخلاق المدنية واساس الحضارة الجديدة « الحرية والنظام » . وكل هذه الافكار تعبر عن ضرورة حاسمة، وهي التثقيف والتربية التي تولّد تقاليد وعادات غير التي كانت سابقا . وهناك ايضاً نفر ينكرون اهمية دور الثقافة والمثقف في هذه العمليات الابداعية ، كالصحفي فتحي غانم عندما يقول ان « الشعب هو مصدر الثقافة الاشتراكية » بدون ان يحدد معنى فكرة بل كلمة « شعب » ، والمعروف ان الشعوب بدون قيادة علمية وثقافية وروحية ليست الا كتلا ليس لها تعريف او شكل محدود .

ان نضج القيم الضرورية وصلاحها لحياة جديدة لا يمكن ان يتم الا عن طريق الحوار التدريجي المستمر . وفي مصر تراث وتقليد ـ ولو كان حديث العهد ـ للحوار على هذا المنوال ، يمثله اولا استاذ الجيل الفقيد احمد لطفي السيد ، خصوصاً خلال السنوات ١٩٠٨ ـ

١٩١٤ ، بمقالاته وكتاباته الاخرى ، والادباء الذين جاءوا بعده امثال محمد حسين هيكل وعباس محمود العقاد وابراهيم المازني واحمد امين وتوفيق الحكيم . ومهما كان الامر فانه لا ينكر احد ان الحوار الذي قام بين هؤلاء كان متعلقاً بقيم انسانية حديثة ، ومن بينهم لا يزال يسيل قلم الاستاذ توفيق الحكيم باهتمامه بالانسان والمجتمع والوسائل التي يصل بها الانسان والمجتمع الى الحياة الراقية والمفيدة لروحه وعقله وكيانه المادي ايضاً .

ولا ريب ان اولئك الادباء كانوا في الجيل الماضي متأثرين بأفكار وقيم مجتمع اوربي منطلق ، فكانت آراؤهم وكتاباتهم بعيدة احياناً عن فهم اغلبية الشعب وعامته ؛ اما ادباء ومفكرو هذا الجيل فقد قرروا تحديد تأثر كتاباتهم ببيئتهم الحية الراهنة ، وهكذا تقربوا من مواطنيهم واندمجوا مع عقلية اخوانهم بما في ذلك من آمال ورغبات ومشاكل وصعوبات وآلام .

لا تزال الثقافة تابعة الى الآن لضرورات الدولة من تدريب صناعي وفني واقتصادي ، وبرامجها تجيء رأساً من السلطات المختصة اي وزارة التربية والتعليم ، لذلك كان نطاق الاختيار الحر في المواد ، وطريقة التدريس لدى الاستاذ والمدرس خصوصاً في الجامعات ، ضيقا ومقيدا . ولا تزال تسهيلات البحث العلمي بدائية ومحدودة خصوصا في العلوم الاجتماعية والفلسفة ، فلم نر بعد اعتناء جدياً بالقيم الضرورية لتربية وخلق جيل جديد يفكر بأسلوب يواجه ويلبي مطالب المجتمع الصناعي الحديث ؛ حتى ان المثقفين انفسهم حائرون في علاقتهم بثورة قلبت حكماً قائماً على مبادىء رجعية ، قادتها فئة من المجتمع تؤدي عملا اختصاصياً ، هي الجيش . فهذه الحيرة هي الصعوبة الرئيسية التي تمنع المثقف من ان يرسم بجرأة خطوطاً اساسية جديدة لفلسفة حديثة معاصرة للتمدن الانساني للمواطن او لعضو المجتمع العربي الحديث . ولا ننكر ان الجمهورية العربية المتحدة محتاجة الى اختصاصيين في شتى الاعمال الفنية والعلمية والصناعية كي تقوم ببناء امة ودولة حديثة ، ولكن يقول الدكتور محمد مندور بضرورة ترقية الاذواق اجمالا في الشعب في القراءة والفن والثقافة العامة .

وبينما سبق ثورات فرنسا في القرن التاسع عشر ، وثورة روسيا في القرن العشرين ، وكذلك ثورات اخرى في اوربا وآسيا ، تفكير منظم استبدل مجموعة كاملة من العقائد

والمبادىء والقيم القديمة بمجموعة جديدة كاملة للمجتمع المرجوّ – لم يحدث هذا في الجمهورية العربية المتحدة بعد ، مع ان السنوات الاخيرة قد شهدت انتقادات جمة للحياة القديمة ، حتى ان مشكلة الدين والسلف وما يتعلق بهما من افكار اجتماعية وسياسية لا تزال تتخبط بين القبول والرفض بدون تفسير منظم يفصل بشكل قاطع بين الحيرة والارتباك في تفكير العامة والخاصة . انا لا أصرّ بأنه من المحتوم للثورة او المجتمع ان تكون لهما فلسفة جاهزة كاملة كي يتغير ، لان هذا الاصرار يكاد يكون دوغماتيكيا – ولكنه يستحسن ان يكون الاختيار لدى اعضاء المجتمع في مرحلة الانتقال من عصر الى عصر جريئاً واضحاً . وبما اني لا اودّ ان يفهم القارىء بأني اعتنق النظرية التي تقول بأن انطلاق الثورات الجوهرية يجب ان يتمّ بقيادة المثقفين ، ربما يتساءل القارىء اذا كان امثال روبسبير او لنين او ماوتسي تونغ لازمين لانطلاق ثورة جدية . ومهما كان الامر ، فان الجمهورية العربية المتحدة ما زالت تنتظر النخبة المثقفة التي ستقودها الى مدى ابعد من المراحل الثورية الاولية ، وما زالت في حاجة الى نظرية للمبادىء والقيم والحياة الجديدة ، مبنية على الدرس والبحث الدقيق لمشاكل واسئلة اساسية ، اذا ارادت لثورتها ان تكون آلة منظمة للتطور والتغيير العميق الابدي لا الموقت . ان اغلبية اعضاء النخبة الراضية بالثورة مرتبطون بأعمال الصحافة والوظائف التي لا تمكنهم او تؤهلهم للفراغ والتأمل والبحث والدرس العميق المنظم المستمر ، كما ان بعض افراد النخبة المثقفة منعزلون عن التيارات الجارية ومنقطعون عن نبض الامة الثوري او لا يرضون بالوضع الراهن ، وزد على هذين الوضعين ان السلطات تفضل الفنيين والصناعيين في اعمال الانطلاق الثوري .

من اهم واجبات الثقافة نقد الفرد والمجتمع وممثليه . وهذا لا يعني رفض ضرورة العمل الثوري ، او رفض الحقيقة التي تؤكد انه من التفاهة والسخافة في هذا العصر والزمان ان يأمل المرء الرجوع الى الماضي والقرون الغابرة البائدة . ولست اعني بالنقد انتقاد البروقراطية والموظفين فحسب ، بل اعني به انتقاداً عميقاً يتقصى ما لدى المجتمع من معتقدات وعادات وتقاليد ، ويبحث في قيمتها ، ويوضح ما هو ضروري وحيوي للتقدم والسعادة وما هو مناقض لهذين الهدفين او الرغبتين ، ويعرّف ما هو ميسر ومسهل وما هو معقد ومؤخر لهما .

ومما يلاحظ ان نسبة النجاح في التدريب الصناعي التكنولوجي في الجمهورية العربية المتحدة أعلى من نسبة النجاح في تربية رواد الفكر العلمي الاجتماعي والانساني ، مع العلم

بأن نسبة الطلاب في الآداب والحقوق أعلى بكثير من نسبتهم في العلوم الطبيعية والهندسية الخ . والاقتصادي المصري من أرقى الفنيين في سنّ قوانين الضرائب والتعبير الاحصائي، ولكنه من النادر ان يصبح فيلسوفاً اقتصادياً يبين نظريات مفصلة كاملة قابلة للاختبار والتطبيق في مجتمعه وله نظرية شاملة لمعالجة مشاكل مجتمعه واهدافه . ولعل هذا راجع الى ان التثقيف والتربية لم تعالج حتى اليوم مشكلة التحليل العقلي الناقد وتدريب الطالب على التفكير في اطار نظري دقيق . لهذا فانّ خريج كلية الآداب والعلوم الاجتماعية يكتشف حين يتوجه للدراسة في امريكا ان اكبر صعوبة يتعرض لها في تدريبه للشهادات العالية هي اعداده الناقص في التحليل النقدي المنظم ، فيدهش ويثور عندما يرسب في الامتحانات العامة للدكتوراه ويحتج عادة بأنه اتبع جميع الدروس والمواد المفروضة لمرحلة الدكتوراه، ولا يخطر بباله ان الامتحان العام انما يفحص مدى وحدّة تحليله النقدي للمواد التي طالعها خلال هذه الفترة . واما الطالب المتخصص في العلوم الطبيعية والطبية والزاعية فان لديه ادراكاً شديداً وعميقاً لهذه العلوم يسهّل عليه التقدم فيها .

في الجمهورية العربية المتحدة اليوم دولة ثابتة وحكم ثوري يتوقع التقدم والرقي لشعبه ويرغب فيه ، لكن فيها ايضاً شعباً يتنازع فيه القديم والحديث . فالمهمة الرئيسية للنخبة والزعامة (وبالاخص للثقافة والمثقفين) هي بناء شعب جديد متجانس على أسس ومبادىء العصر الصناعي ، وهذا البناء لا يتوقف على تعليم التكنولوجيا فحسب ، بل على قرار الشعب (او على الاقل على قرار زعمائه) الفاصل ازاء الثقافة القديمة وقيم العصر الغابر . وعدم الاقرار بهذه الازمة في كيان الشعب يفتح ابواب الشك والتبلبل على مصاريعها ويؤجل مواجهة المسائل الهامة في الحياة المعاصرة : مثلا ، ما هو واجب الانسان نحو نفسه ونحو مواطنيه ؟ هل فُرض عليه كيانه الحالي الى الابد من قبل قوة خارجة بعيدة عنه ، أم هل له النصيب والمسؤولية الاولى في توجيه كيانه الدائم التغير ؟ ويجب التنبيه على ان في وجهة النظر هذه يكمن خطر يدعو المثقف الى اعتبار الحياة وقيمتها امراً عابراً في بحر التطور والتغير المستمر ، فعليه ان يقبل هذه الامكانية ، بل واكثر من هذا عليه ان يكتشف ويبني قيماً جديدة قابلة للتطبيق في كل مرحلة من مراحل تطوره .

ويبدو لنا احياناً ان تبلبل المثقفين الحالي في الجمهورية العربية المتحدة ينبع من قوة الثورة التي اتت على ايدي ضباط الجيش ، ولذلك اكتفى هؤلاء المثقفون في عملهم حتى الآن على تفسير هذه الثورة وتدعيمها ، بدون ان يعالجوا معنى التغييرات المرتبطة بعمليات السلطة . فالقومية والوطنية مثلاً تستلزمان ان يأخذ الفرد والجماعة على عاتقهما عهداً بقبول الولاء لنظام اجتماعي وسياسي له صفات معروفة مستقرة ثابتة ومنظمة . فليست القومية والوطنية الولاء لزعيم او حاكم كما كانت عند القبائل ايام الاسلام والجاهلية قبله . واللغة والتراث والاختبار التاريخي فروض اساسية للقومية ولكنها لا تكفي لتكوين قومية فعالة ، فبدون الولاء الفاصل لنظام يتفق عليه اغلبية القوم وفئات البلد المختلفة لا تكون القومية غير فكرة بدون اطار ومجهود محدد ومستمر . فالولاء لنظام اجتماعي وسياسي يفرض على المواطن واجبات معينة وخدمات منظمة لبقاء هذا النظام ولتطوره وترقيته . فالمسؤولية اذاً نحو هذا النظام تأتي طبيعياً بالتطوع لا بالعنف والاجبار المرسوم او بالتعبئة والارغام . هذا هو الفرق بين القومية المجردة والوطنية العملية التي تفرض الواجب والتضحية وتحمل المسؤولية . وهذه الصفات لا تأتي الا باقامة قيم كأساس لها بتعريف المستحب والمفيد للمجتمع واعضائه . فهل من المستحب والمفيد مثلا ان يراقب المجتمع حكامه وان يفرض عليهم حدوداً في السلطة لا يتعدونها ؟

ويلاحظ المتتبع اخبار المجتمع المعاصر في الجمهورية العربية المتحدة وجود حركة تساؤلية بين مثقفيها الذين يجرؤون على انتقاد القديم في الدين والادب والحياة . ففي الادب حركة تقدمية في فن القصة والشعر والمسرحية ، وهناك حوار جديد حول اللغة (اي الفصحى والعامية) ، واهتمام باحوال الفنون التشكيلية والتطبيقية والموسيقية والتمثيلية . وبالرغم من ان المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون هو مصلحة حكومية لتوجيه هذه الفنون وانعاشها ضمن مفهوم الثورة ، فان هذا المجلس قد ركز نشاطه على اكتشاف الكثيرين من الفنانين والادباء الموهوبين . فالثورة بصفتها حركة جديدة قد فتحت طرقاً شتى لم يكن لها مثيل في الماضي لانطلاق وتنمية ثقافة غير الثقافة القديمة . وهكذا لا يزال الحوار والجدال بل « الحرب » في معنى التراث العربي الاسلامي قائماً بين الفرق المثقفة في البلد ، وما بدأه منذ ثلاث عشرة سنة الشيخ خالد محمد خالد في باب المجادلة مع السلف وضد اوزار الماضي الثقيل له صلة بما جاء قبله سواء أكان هذا في عمل الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ام في جرأة الشيخ علي عبد الرازق . وقد تأججت شعلة هذا الحوار مؤخراً في

الجدال القائم بين الدكتورين لويس عوض ورشدي صالح (وبينهما الدكتور محمد مندور) حول معنى التراث الاسلامي العربي ، وهل كان هذا تراث جمود وضعف بالنسبة الى عمل الانسان ومقدرته في تنظيم حياته ام كان مصدر قوة تجمع بين العقل والعمل والتقدم المستمر ؟ ومن الامثلة على هذا الحوار كتاب رشدي صالح « رجل في القاهرة » ، الذي يروي فيه قصة مجيء العلامة ابن خلدون من المغرب الى القاهرة ، ليعبر عن اعتقاده في ان اهم سكان الكون هو الانسان ، كما انه اقواهم بصفته كائناً له عقل يدبر به اموره وله يد عاملة يستعملها لبناء حياته ومصيره كما يملي له عقله وذهنه ، ويعبر ايضاً عن اعتقاده في ان اهم معالم المجتمع الانساني هو التطور والتغير المستمران اللذان يعتمدان على البيئة الطبيعية والمادية المحيطة بالانسان . الا اننا نفهم تقديس العقل والعمل هذا بقلم رشدي صالح ، اذا اعتبرنا نظريته في اهمية ادب العامة (او الفوكلور) تعبيراً عن الحياة الوجودية وقواها . والمهم في نشاط رشدي صالح الادبي هو اولا التحدي الجريء للتقاليد ، في قوله بأن للانسان المقدرة على اكتشاف المجهول واكتشاف نفسه ايضاً ، وان هذا اساس الثقافة والتربية الحديثة في المجتمع المعاصر ؛ وثانيا قوله في نظريته هذه ان تراث العلامة ابن خلدون ، الذي توصل بفكره وبنظرياته الى فلسفة اجتماع تعتبر حديثة ، هو تراث عربي اسلامي مصري يجب على الاحياء في يومنا هذا ان يعتنقوه برنامجاً ومثلاً أعلى لتقدمهم .

ان اتخاذ العقل مبدأً لعمل الانسان الحي ليس بفكرة جديدة ، اذا استعدنا للذهن مؤلفات الدكتور الشميل وسلامة موسى ولطفي السيد بل واحمد امين وتوفيق الحكيم . ولكن الجديد في المخاطرة الحالية هو انها تقدس العقل والعمل اليدوي البشري على السواء ، كما هو ظاهر في مؤلفات مصطفى محمود ، وانها تسعى الى تلطيف تعاسة الفلاح ، كما نجد في مؤلفات يوسف ادريس وعبد الرحمن الشرقاوي ، وكما نجد في مؤلفات نجيب محفوظ التي تشيد بأهمية الموظف الصغير وعائلته . فلا شك ان ادباء الجيل المعاصر مختصون بمجتمعهم وتفسير واقعه وضعفه وتأخره ؛ ولكن بالرغم من وجود حركة انتقادية واقعية بين الذين يشتغلون في العلوم الاجتماعية وقضايا المجتمع ، الا اننا لم نشاهد بعد تحليلا منظما مثل تحليل الدكتور صبحي وحيدة ، بل نشاهد على العكس من ذلك حملات صارمة وهجوماً مشتتاً يشنه المحافظون الدينيون على المجددين امثال رشدي صالح ومصطفى محمود . ومن احدث هذه الحملات هجوم الدكتور محمد البهي رئيس جامعة الازهر ووزير الاوقاف حاليا على المجددين في كتابه « الفكر الاسلامي الحديث وعلاقته بالاستعمار الغربي » (١٩٥٧) ،

وفي حملته هذه يتهم الدكتور البهي المنادين بتطور الانسان الطبيعي والاجتماعي وبقدسية عقله وعمله انهم دهريون وماديون .

وفي الوقت ذاته قررت الحكومة في حزيران (يونيو) ١٩٦١ جعل الجامع الازهر جامعة حديثة الطراز ، وهذا القرار من اخطر الخطوات التي اتخذتها قيادة الثورة في الآونة الاخيرة . ان عملية تقدم العلماء والأئمة الدينيين لكي يختلطوا بالجمهور المنطلق ويوجهوه توجيها اسلاميا في عالم القرن العشرين سياسة نبيلة وضرورية لا بأس بها في وجه الرغبة في التطور ، ولكن للاسلام تاريخا يجعله في آن واحد دينا ونظرية اجتماعية كاملة على السواء . فهل تحلّ هذه الخطوات الخطيرة التي تأخذها الحكومة مشكلةَ العقائد والتقاليد الدينية الشعبية التي تكونت وتجمدت عبر العصور ؟ وهل تجيب هذه الخطوات على مسألة طبيعة الدين ودوره في المجتمع الصناعي الحديث ؟ اذا لزم لاعضاء هذا المجتمع ان يستمدوا في حياتهم من نور العقل والاختبار واكتشاف المجهول في حالة تغير وتطور مستمر فما هي وظيفة الدين ودوره الواضح ؟ هل للدين دور رئيسي في تنمية وخلق شخصية المواطن المعاصر وقيمه ؟ وما هي علاقة الدين بالثقافة والقومية والوطنية ؟

لقد كان المسلمون في الماضي مستقرين في مجتمع يحكم على اخلاقه وقيمه ومعاملاته الدين اولا ، ولكن في المدة الاخيرة رفض الكثيرون هذه السيطرة الدينية في فترة الانتقال وخلال مواجهتهم المباشرة للافكار والقيم الحديثة . وهذا الاصطدام الشديد قد سبب القلق والتبلبل والشك في عقلهم وشخصيتهم ، ولذلك لا يستقر المجتمع واعضاؤه حتى يتبلور مفهوم جديد لمعنى الحياة البشرية والعمل فيها والكون اجمالا ، وهذا لايتم باستعارة ما اكتشفه قوم او مجتمع اجنبي فحسب ، بل عن طريق ما يكتشفه العربي المسلم نفسه . والسؤال الجوهري الذي يواجهه المثقف في الجمهورية العربية المتحدة اليوم ، كما سيواجهه عامة الشعب عاجلا ام آجلا ، هو : هل في امكانه ان يتحول الى رجل حديث معاصر في عقليته وعاداته ومفهومه للكون وللمعاملات الانسانية ، وفي الوقت نفسه يبقى راسخا في اسلامه قويا ؟ ام هل على المسلم المعاصر ان يرفض الاسلام كليا او جزئيا لكي يتحول الى الوضع الذي اشرنا اليه ؟ ام هل بامكانه ان يحدث في تفسير دينه تغيراً اساسياً يلائم حاجاته في هذا العصر ؟

ان تحويل الفكر اسهل من تغيير الفطرة والاحساس ، فالمطالبة بتحرير المرأة مثلا ومساواتها للرجل امر يختلف عن معاملة المرأة الفردية الواقعية في البيت ، كما ان تبني افكار

ونظريات معاصرة حديثة يختلف كل الاختلاف عن قبول هذه النظريات قبولا عاطفياً يمكنها من السيطرة على الاخلاق والمعاملات اليومية .

ولقد فهم الاستاذ توفيق الحكيم مأساة مصر بأن « اساسها الزمن ... ذلك النضال الهائل بين الانسان والزمن » ، كما قال « ان في مصر افكاراً ثابتة لم تتغير الا قليلا منذ عهد الاساطير الاولى حتى اليوم » . وتغيير هذه الطبيعة القومية يلزمه زمن طويل ، ولا ضرورة ان نقبل الرأي المتطرف الذي قال به ابراهيم المازني في سنة ١٩٣٦ : « المصريون على الجملة اطلب الى الترف والرخاء السمين والراحة منهم للقوة والبأس والتجريب ... ولا صبر لهم على المغامرة » . فالمازني كان رجلا قد خاب أمله لعدم اقبال مواطنيه على المغامرة والتجربة والمبادرة ، وهي ثلاثة من اهم عوامل التقدم والابداع . اما توفيق الحكيم فلم يصل الى هذا الحد من الخيبة ، بل يقول لنا فقط ان التحمس للثورة والعمل لاسنادها يصعّب على الادباء والمثقفين ورواد الثقافة ايجاد الوقت الكافي لكي يتثقفوا ويتعمقوا في التفكير بمشاكل المجتمع الاساسية ؛ فهناك خطر في ان تصرف الامة كل مجهودها في تدعيم الآلة والتنظيم الآلي بدون ان تسمح لنفسها بالوقت اللازم لتكوين معالم اطار مجتمعها الحديث ؛ وهذا النقص بدوره يعقّد لاعضاء المجتمع ان يعرّفوا انفسهم بقوميتهم ووطنيتهم ، كما يسمح لأخطر التطورات ان تحدث ، كابقاء احكام واوضاع عابرة سطحية تمكّن البقاء لتقاليد وعادات وقيم لا تزال ضعيفة .

قال لنا المؤرخ اليوناني ثوسيديدس في تاريخه المشهور لحروب المورة : ان المثقفين هم اضعف اعضاء صفوة المجتمع لتولي الحكم والزعامة السياسية . ولكن أليس لهم ان يكونوا اقوى دعامة وخير ضمير للذين بأيديهم مقاليد الحكم ؟